سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

٢٥

مقالات في اللّاهوت

والحركة المسكونيّة

بقلم المطران كيرلّس سليم بسترس

منشورات المكتبة البولسيّة

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

المقالة الثانية عشرة

التعبير اللاهوتيّ والحداثة

أوّلاً – تحديد الألفاظ

موضوع هذا البحث، كما يدلّ عليه عنوانه، هو العلاقة بين التعبير اللاهوتيّ والحداثة. فلا بدّ لنا أوّلاً، قبل أن نُعالج العلاقة بين التعبير اللاهوتيّ والحداثة، أن نُحدِّد هاتَين اللفظَتَين: ما هو اللاهوت؟ وما هي الحداثة؟

١ - ما هو اللاهوت؟

يُروى عن الفيلسوف اليوناني ديوجين أنَّه كان يسير في شوارع أثينا في وضح النهار وهو حاملٌ مصباحًا، فيسأله الناس: "لماذا هذا المصباح، أيّها الفيلسوف، في وضح النهار؟" فيُجيبهم: "إنّي أبحث عن إنسان". الفلسفات كلُّها على مدى تاريخ البشريّة، والأديان كلُّها في جميع الحضارات، هي بحثٌ عن الإنسان. والبحث عن الإنسان، سواء أكان ذلك في الفلسفة أم في الدين، يهدف إلى تكوين صورة الإنسان المثاليّ، أي الإنسان الذي يُحقّق في الواقعِ الصورة التي تعتبر الفلسفة ويعتبر الدين أنّها الصورة الأفضل التي تُحقّق كمالَ الإنسان، في شخصه كفرد وفي علاقاته مع غيره في المجتمع، وتوصل الناسَ إلى السعادة والمجتمعات إلى السلام.

يقول الفيلسوف اللبنانيّ خليل رامز سركيس: "الإنسانُ لم يولَد بعد. فما ثَمَّةَ منه إلاَ موادُّ أُوَل لم يأتلف بعضُها مع بعض". **المسيحية تؤمن أنَّ الإنسان خُلق على صورة الله**، ولن يصل إلى كمال كيانه الإنسانيّ إلاّ بتحقيق الصورة الإلهيّة التي خُلق عليها. وتؤمن أنَّ **يسوع المسيح هو صورةُ الله** وكلمته الأزليّة التي تجسَّدت في ملء الزمان وتجلّت لنا في شخصٍ إنسانيّ تؤمن أنّه جمع في ذاته الواحدة كمالَ اللاهوت وكمالَ الناسوت.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

والمسيحيّون يُؤمنون أنّهم بقدر ما يتّحدون بيسوع المسيح ويحيون من حياته، يُحقّقون في ذواتهم الخلاصَ الذي حصلت عليه البشرية بموت يسوع المسيح وقيامته، ويُحقّقون عمقَ كيانهم الإنسانيّ والصورةَ الإلهيّة التي خُلق عليها الإنسان.

هذا هو **جوهر الإيمان المسيحيّ**، الذي حاول **اللاهوت** أن يعبّر عنه، على مدى تاريخ الكنيسة، في مختلف أنماط الفكر البشريّ وفي مختلف الثقافات البشريّة، انطلاقًا من **خبرة الرسل مع السيّد المسيح** في حياته وفي ترائيه لهم من بعد قيامته، تلك الخبرة التي دُوِّنت منذ القرن الأوّل للمسيحيّة في أسفار **العهد الجديد.**

فاللاهوت هو إذن **التعبير بلغة بشريّة** معيّنة **وثقافة بشريّة** معيّنة عن **تجلّي الله تجلّيًا كاملاً ونهائيًّا في شخص يسوع المسيح كلمة الله**، هذا التجلّي الذي فيه انكشف للناس في آنٍ واحد سرّ الله وسرّ الإنسان. واللاهوت، في تعبيره هذا، لا يهدف إلى المعرفة في سبيل المعرفة، بل يهدف بالحريّ من خلال المعرفة إلى خلاص الإنسان بمنحه الحياةَ الإلهيّة. هذا ما أعلنه الإنجيل بحسب يوحنّا في ختامه: "وصنع يسوع أمام التلاميذ آيات أخرى كثيرة، لم تُدوَّنْ في هذا الكتاب. وإنّما دُوِّنتْ هذه **لتؤمنوا أنَّ يسوع هو المسيح ابن الله، وتكونَ لكم**، إذا آمنتم، **الحياةُ باسمه**" (يو ٢٠: ٣٠-٣١).

٢- ما هي الحداثة؟

إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، في حديثه عن "الكنيسة في عالم اليوم"، يتكلّم على "استقلال الأمور الأرضية"، فيقول:

"إذا أردنا باستقلال الأمور الأرضية أنَّ الأشياءَ المخلوقةَ والمجتمعاتِ نفسَها تتمتَّعُ بنواميسَ وقيَمٍ خاصّة، على الإنسان أن يعرفَها شيئًا فشيئًا وأن يستخدمَها وينظّمَها، فذاك الاستقلالُ هو ما يقتضيه الحقّ والشرعُ في غيرِ اجتزاء. وهو، فضلاً عن كونه من متطلّبات أبناء هذا العصر، يتّفق وإرادةَ الخالق. فبواقع عمل الخلق نفسه، تنتظمُ الأشياء كلُّها في شتّى مقوّماتها وحقيقتها وصلاحيّتها ونواميسها الخاصّة

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

ونظامها، وعلى الإنسان أن يحترمَ ذلك كلَّه وأن يقفَ على الطرائق الخاصّة لكلِّ علم من العلوم ولكلِّ فنّ من الفنون.

وهكذا فمن غير الممكن، في شتّى ميادين المعرفة، أن يختلفَ الإيمانُ والبحثُ المنهجيّ إذا جرى هذا البحث مجرىً علميًّا صحيحًا، وتتبَّعَ النُّظُمَ الأخلاقيّة، لأنَّ لحقائق الدنيا ولحقائق الإيمان مصدرًا واحدًا هو الله. أضف إلى ذلك أنَّ الإنسانَ الذي يسعى جاهدًا في ثباتٍ واتّضاع أن يسبر سرَّ الأشياء، هذا الإنسان، وإن على غير وعيٍ منه، كأنّما تقوده يدُ الله التي تسندُ الأشياءَ كلَّها وتعملُ على أن تكون تلك الأشياء على ما هي عليه. وليُسمَحْ لنا في هذا الباب أن نأسفَ لبعض المواقف التي يقفها أحيانًا المسيحيّون أنفسهم، وقد غفلوا بعض الشيء عن النظر الدقيق في شرعيّة استقلال العلمِ، فنشأ من ذلك مشادّاتٌ ونزاعاتٌ حملت الكثيرين على التفكير في أنّ الإيمانَ والعلمَ على تناقض.

"ولكن، إذا أُريدَ"باستقلال الأشياء الزمنيّة" أنَّ الأشياءَ المخلوقة غيرُ متعلّقةٍ بالله، وأنَّ باستطاعة الإنسان أن يتصرَّف بها من غير الرجوع إلى الخالق، فذلك من الخطأِ الذي لا يخفى عن أيّ إنسان يعرف الله. فإنَّ المخلوقات تتلاشى إذا انفصلت عن الخالق. وإلى ذلك فإنَّ جميعَ المؤمنين، من أيِّ مذهبٍ كانوا، سمعوا دائمًا صوتَ الله وإعلانَه في منطق المخلوقات. وإنَّ في نسيان الله والتغاضي عنه إظلامًا للخليقة نفسها" **(الكنيسة في عالم اليوم، ٣٦).**

نجد في هذا الإعلان المجمعيّ تحديدًا للحداثة، وتحديدًا للشرط الذي لابدّ منه لكي يتمكَّنَ الإيمانُ من القبول بالحداثة. فالحداثة تقوم على الاعتراف بأنَّ الشؤون الأرضيّة، في نواميسها الخاصة، مستقلّةٌ عن الدين، وبأنَّ كلَّ علم له طرائقُه الخاصّة للبحث في الأمور وتطويرها. فميدان العلوم والفنون على اختلاف أنواعها هو إذن مستقلٌّ عن ميدان الدين. أمّا الشرط الوحيد لقبول هذا الاستقلال فهو أن لا يتجاوزَ أيٌّ من العلوم والفنون ميدانَه الخاصّ به ليحكمَ في الميدان الخاصّ بالإيمان والدين، فيستنتجَ مثلاً من العلم عدم وجود الله، ويستخلصَ من العلم جواز التنكّر للقيم الأخلاقيّة.

فالحداثة، بتأكيدها ترك كلّ ميدان من الميادين البشريّة يخضع لنواميسه الخاصّة، تبدو وكأنّها جاءت تُناقض الدين الذي كان، في عصر ما قبل الحداثة، وحدَه الحَكَمَ في كلّ ميادين الفكر البشريّ وفي مختلف

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

العلوم والفنون. وقد بدأت الحداثة في الواقع عندما تطوَّرت العلوم، وتبيَّنَ للعلماء أنَّ صورةَ العالم التي كان الدين ينقُلها لم تعد مطابقةً للصورة التي اكتشفها حديثًا.

وأفصحُ مثال على ذلك، وبه يمكن أن نقول ببدء عصر الحداثة، أنّه عندما اكتشف غاليليه أنّ الأرض هي التي تدور حول الشمس، وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض، بدا أنَّ هذا الاكتشاف يُناقض معطيات الكتاب المقدَّس. فرفضُ الكنيسة آنذاك لاكتشاف غاليليه لم يكن رفضًا للعلم في ذاته، بل كان رفضًا للقول إنَّ الكتاب المقدَّس هو على ضلال، لأنّ الدين كان يُعتَبَرُ شاملاً كلَّ المعارف والعلوم. فالحداثة بدأت بتحديد الميدان الخاصّ بكلّ من الدين والعلم. فبقولنا إنّ الكتاب المقدّس هو كتابٌ دينيّ وليس كتابًا علميًّا، نعني أنّ المعطيات العلميّة التي يحويها وينقلها ليست تعاليمَ يهدف إلى تأكيدها، بل مجرّدُ إطار تندرج فيه التعاليم الدينيّة والأخلاقيّة التي هي وحدها موضوع الكتاب المقدَّس.

فسواء كانت الشمس هي التي تدور حول الأرض أم كانت الأرض هي التي تدور حول الشمس، فالمهمّ من ناحية الدين هو الإيمانُ بأنَّ الله هو خالق الشمس والأرض، وبأنّه هو سيّد العالم والإنسان والتاريخ. وهذا التعليم هو حقيقة إيمان، ولا يُمكن أن يكونَ على ضلال.

ومع استقلال العلم عن الدين، تميّزت الحداثة بتأكيد حريّة الإنسان وتعزيز الروح النقديّة فيه. فلم يعد يقبل إلاّ ما يقتنع به، رافضًا التسلّط، وراح يُخضع التقليدَ للنقد العلميّ، نابذًا ما لا يتلاءمُ والمعطياتِ العلميَّةَ الحديثة.

ثانيًا – دخول الكنيسة الكاثوليكيّة في الحداثة

كان لنشأة الحداثة تأثيرٌ كبير في الدين وفي مفهوم علاقة المؤمن بالدين. وتبيَّن أنَّ الدين لا يُمكنه أن يستمرَّ إن لم يقبل بالحداثة وبما أدخلته من نمط فكريّ على الإنسان في تصوّراته الدينيّة وفي علاقته بالعالم.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

١ - الحداثة في المجمع الفاتيكانيّ الثاني

هذا ما عَملَ المجمع الفاتيكانيّ الثاني على توضيحه في كلّ أعماله، وبنوع خاصّ في وثيقته "الكنيسة في عالم اليوم". إلاّ أنَّ فريقًا من المسيحيّين لم يقبلوا الدخول في الحداثة، وظلّوا متمسّكين بالفكر التقليديّ القديم، حتّى إنَّ البعض منهم رفض من المجمع الفاتيكانيّ الثاني كلَّ انفتاح على الحداثة.

انفتاح الدين والكنيسة الكاثوليكيّة على الحداثة يحتّم على الفكر اللاهوتيّ الكاثوليكيّ أن ينفتحَ بدوره على الحداثة، ويُحدثَ تغييرًا جذريًّا في التعبير اللاهوتيّ. إلاّ أنَّ هذا لا يُمكن أن يتمَّ إلاّ بفطنة وبحكمة، ودون أيِّ إساءَة إلى جوهر الإيمان. وهذا لن يتحقَّقَ في زمن قصير بل يتطلَّب وقتًا طويلاً، تنشأ في أثنائه الخلافات حول التمييز بين ما هو جوهريّ في الإيمان وما هو من قبيل التعبير اللاهوتيّ. ولكن هل من سلطة مخوَّلة للفصل بين المتنازعِين؟ وما هو القياس الذي تعتمده تلك السلطة للقيام بهذا التمييز؟ هذان السؤالان لابدَّ من طرحهما لئلاّ تغدو الحداثة سببًا للانحراف عن الإيمان القويم ونشأةً لدينٍ جديد.

نبدأ بالجواب على السؤال الأوّل عن السلطة المخوَّلة القيام بعمل الحداثة هذا. لاشكَّ أنَّ السلطة في الكنيسة الكاثوليكيّة هي السلطة التعليميّة، وهي وحدها المخوَّلةُ لتقول إنَّ هذا الأمر هو من جوهر الإيمان بحيثُ لا يُمكن أن يُمَسَّ، وذاك الأمر يُمكن تغييره أو تغييرُ تعبيره. ولكنَّ السلطة التعليميّة هي أيضًا تخضعُ لمبدأ الحداثة، فلا تتفرَّد بالتفكير، بل تطلبُ مشاركة المفكّرين المسيحيّين وتستلهمُ حاسَّة الإيمان لدى الشعب المسيحيّ بأجمعه. وهذا ما حدث في الواقع عندما دعا البابا يوحنّا الثالث والعشرون إلى عقد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وقد أراده إعلانًا رسميًّا لدخول الكنيسة الكاثوليكيّة في عصر الحداثة.

وقد أشرك معه في التفكير كلَّ أساقفة العالم الكاثوليكيّ ومراقبين من سائر الكنائس المسيحيّة، وخبراء من اللاهوتيّين. قد يرى البعضُ أنَّ نتائج هذا المجمع لم تكن على المستوى المطلوب من تحدّي الحداثة، كما قد يرى غيرُهم أنَّ الواقعَ اللاهوتيَّ والتنظيمَ الكنسيَّ في الحقبة التي تلت المجمع الفاتيكانيّ الثاني حتّى يومنا هذا لم يُحقّقا التغيير الذي كان يجب أن يُحقّقَه دخولُ الكنيسة في عالم الحداثة، بل بقي تحقيقًا خجولاً، وفي بعض الأمور كان على نقيض المبادئ التي أقرّها المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

قد يكون هذا الاعتراض على جانب من الصحّة، وقد تكون الكنيسة الكاثوليكيّة بحاجة إلى مجمع فاتيكانيّ ثالث، لتقويم ما حقّقته من مقتضيات دخولها في عالم الحداثة. ونرجو أن يكون المجمعُ القادم مجمعًا مسكونيًّا في المعنى الذي كان لهذه الكلمة في الألف الأوّل للمسيحيّة، حيث كانت تجتمع الكنيسة المسيحيّة المنتشرة في المسكونة كلِّها لتقرِّر في أمور الإيمان والأخلاق.

٢ - الحداثة في تاريخ الكنيسة: الانتقال من نمطٍ فكريّ قديم إلى نمطٍ آخرَ مُستحدَث

إنَّ ما فعله المجمع الفاتيكانيّ الثاني لم يكن أمرًا فريدًا في تاريخ الكنيسة. وليسمح لنا التقليديّون المتمسّكون بالتقليد القديم بأن نطلب منهم مراجعة تاريخ الكنيسة لإلقاء نظرةٍ ولو سريعة على المجامع المسكونيّة التي عُقِدت في الألف الأوّل، ليُدركوا أنَّها كانت تلتئمُ كلَّ مرَّة كان يطرأ حدثٌ خطيرٌ يهمُّ الكنيسة كلَّها، ويقتضي منها نمطًا جديدًا في التفكير اللاهوتي وموقفًا جديدًا في الحياة الكنسيّة. نبدأ بمجمع أورشليم (سنة ٤٩) الذي عقده الرسل أنفسهم، وانتقلوا فيه من نمط فكريّ قديم كان يلتزم فيه المسيحيون بالشريعة الموسويّة، إلى نمط حديث لا يُلزم المسيحيّين القادمين من الوثنيّة بالشريعة القديمة. وعندما انتشرت المسيحيّة في المحيط الثقافيّ اليونانيّ، عقدت الكنيسة جمعاء مجمع نيقية (سنة ٣٢٥) لتحديد الإيمان في تعبير الفلسفة اليونانيّة السائدة آنذاك.

لقد صنع مجمع نيقية بالنسبة إلى عصره أكثرَ ممّا صنعه المجمع الفاتيكانيّ الثاني بالنسبة إلى عصرنا الحديث. فغيَّر التعابير، وأدخل على الفكر اللاهوتيّ تعابير مستحدثة، كتعبير "من الجوهر ذاته" (omoousios) الذي أطلقه على الابن لتحديد مساواة ألوهيّته مع الآب.

فإذا رأت الكنيسة اليوم في مجمع مسكونيّ أنَّ هذا التعبير لم يعد يعني شيئًا بالنسبة إلى الفكر المعاصر، وأنَّ الدخول في الحداثة يقتضي تغييره، ليس في هدف إنقاص الإيمان، بل على عكس ذلك في هدف المحافظة على جوهره، يجب عدمُ الاستنتاج أنَّ الكنيسة غيَّرت إيمانَها، بل بالحريِّ الخلوصُ إلى أنَّها غيَّرت تعبيرها اللاهوتيّ في سبيل توضيح الإيمان وتقديمه للمعاصرين بحيث يفهمونه ويجدون فيه، ليس لغزًا غير مُدرك لا فائدةَ منه ولا خيرَ يُرتجى، بل مصدر نعمة وينبوع حياة إلهيّة. والمجامع الأخرى كانت في معظمها جوابًا عن أسئلة جديدة ودخولاً في حداثة جديدة.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

٣- قياس الحداثة

ننتقل الآن إلى السؤال الثاني، وهو عن القياس الذي تستند إليه الكنيسة للتمييز بين ما هو من جوهر الإيمان وما هو من التعبير اللاهوتيّ الخاضع للتعديل بحسب مقتضيات الحداثة، لجعل الإيمان في متناول أذهان المعاصرين. يقول بولس الرسول: "لا يستطيع أحدٌ أن يضعَ أساسًا آخر غيرَ الموضوع، الذي هو يسوع المسيح" (١ كو ٣: ١١).

فالقياس لا يمكن أن يكون إلاّ يسوع المسيح، كما آمن به الرسلُ وكما دُوّن هذا الإيمان في الكتاب المقدَّس. فالمسيح هو، بحسب سفر الرؤيا، "الألفُ والياء، الأوَّلُ والآخر، المبدأُ والغاية" (رؤ ٢٢: ١٣)، وهو، بحسب الرسالة إلى العبرانيّين، صورةُ الله وكلمتُه الأولى والأخيرة للبشر: "هو ضياءُ مجده، وصورةُ جوهره، وضابطُ كلِّ شيءٍ بكلمة قدرته" (عب ١: ٣). ونقرأ في مطلع الإنجيل بحسب يوحنّا: "الله لم يره أحدٌ قط، الابنُ الوحيد، الذي في حضن الآب، هو نفسُه قد أخبر" (يو ١: ١٨).

لذلك قَصْدُ الخلاص بمجمله، الذي سوف "يُحقّقُه الله عند تمام الأزمنة، يقوم في أن يجمعَ تحت رأس واحد في المسيح كلَّ شيء، ما في السماوات وما على الأرض" (أف ١: ١٠). إذّاك سيُخضِع الله كلَّ شيءٍ للابن، "ومتى أَخضعَ له كلَّ شيء، حينئذ يُخضِعُ الابنُ نفسَه للذي أخضع له كلَّ شيء، ليكونَ الله كلاًّ في الكل" (١ كور ١٥: ٢٨).

لذلك يسوع المسيح، من حيث هو الوحيُ الكاملُ والأخيرُ لله، هو محورُ الوحي، ومحورُ الإيمان ومحورُ كل تعبير لاهوتيّ. هذا هو جوهرُ الدين المسيحي والذي اتّفقت عليه في الزمن المعاصر الكنائس المسيحية كلّها ووضعته أساس دستورها في **مجلس الكنائس العالميّ** الذي يُحدِّدُ ذاته بقوله إنّه **"جماعةُ الكنائس التي تعترفُ بالربِّ يسوعَ المسيح وفاقًا للكتاب المقدّس إلهًا ومخلِّصًا، وتهدفُ إلى تحقيق ما دُعيَتْ إليه لمجد الله الآبِ، والابنِ، والروحِ القدس".**

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

فقياسُ كلِّ تحديثٍ في التعبير اللاهوتيّ ومرجعُه هو الاعترافُ بالربّ يسوع المسيح إلهًا ومخلّصًا وفاقًا للكتاب المقدَّس. فالعودة إلى الكتاب المقدَّس هي متضمَّنة في هذا القياس، وإن كان لابدّ من قراءة الكتاب المقدَّس قراءةً تتلاءَمُ هي أيضًا والحداثة، كما سنرى على الفور.

ثالثًا - بعض مواضيع الحداثة في التعبير اللاهوتيّ

استنادًا إلى المبادئ التي وضعناها في القسمَين الأوّلَين، نستطيع أن نعرض في هذا القسم الثالث لبعض المواضيع اللاهوتيّة التي شملتها الحداثة في الكنيسة الكاثوليكيّة في النصف الأخير من القرن العشرين، والتي تغيّر فيها التعبير اللاهوتيّ.

١ - الحداثة في مفهوم الوحي الإلهيّ

إنّ اكتشافَ الكتب المقدَّسة لدى الأديان غير المسيحيّة واكتشافَ أوجه الشَّبَه بين الفنون الأدبيّة المستخدَمة فيها وتلك التي يستخدمها الكتاب المقدَّس أوصل علماء الكتاب المقدّس إلى التمييز بين جوهر التعليم الذي ينفردُ به الكتاب المقدَّس والأنماط الأدبيّة المشتركة مع كتب سائر الأديان والحضارات، والتي هي تراثٌ مشترك للبشريّة في حقبة ما من الزمن. وهذا ما اعترف به، بعد سنوات من النزاع بين علماء الكتاب المقدَّس والسلطة الكنسيّة، المجمع الفاتيكانيّ الثاني في دستوره في "الوحي الإلهيّ". يقول:

"بما أنَّ الله قد تكلَّم في الكتاب المقدَّس بلسان البشر وعلى طرائق البشر، فإذا شاء مفسّرُ الكتاب المقدَّس أن يُدرِكَ إدراكًا كاملاً حقيقةَ ما قصَدَ الله ممّا أبلغَنا إياه، توجَّب عليه أن يتفحَّصَ كلامَ كاتب الوحي متسائلاً: ما هي حقيقةُ ما هدَفَ إليه في قوله؟ وماذا حسن لدى الله نفسه أن يكشفَ على لسانه؟

"ولكي يستخلصَ المرءُ نيَّة كاتبِ الوحي ممّا قاله، توجَّبَ عليه، فيما توجَّب، أن يُولي "الأنماط الأدبية" اهتمامًا خاصًّا. لأنَّ الكاتبَ، الذي يبسطُ حقيقةً ما، قد يعبّرُ عنها بطرقٍ متنوّعة وفي نصوص تعتمدُ أساليب مختلفة، فتأتي تاريخيّة أو نبويّة أو شعريّة أو بأنماط أخرى من أنماط التعبير. فيجبُ إذن على المفسِّر أن يبحث عن المعنى الذي قصَدَه كاتبُ الوحي، ويرى كيف عبَّر عنه في أجواء خاصّة وفي بيئة لازِمة، وفي أوضاع ثقافيّة راهنة، معتمدًا أنماطًا أدبيَّةً شائعةً في زمانه.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

وإذا ما شاءَ المرءُ أن يكشفَ حقيقةَ ما قصد كاتبُ الوحي تأكيدَه في كتاباته، وجبَ عليه أيضًا أن يتنبَّهَ تنبُّهًا دقيقًا إلى ما شاع في بيئة الكاتب من طرق موروثة، تُستعمَلُ للتعبير عن عاطفة، أو لرواية قول، أو لسرد حادثة، وإلى ما شاعَ في مختلف البلدان، في العهد عينه، بين المجتمعات الإنسانيّة، من طرقٍ للتعامل" **(في الوحي الإلهيّ، ١٢).**

ثم يؤكّد المجمع أنَّ هذا التفسيرَ، فضلاً عن خضوعه للحداثة، يجب أن يبقى خاضعًا لأمرَين أساسيَّين: وحدة الكتاب المقدّس والوحي، والتقليد الحيّ الجاري في الكنيسة كلّها. ويخلص إلى أنّ هذه الدراسات في معاني الكتاب المقدَّس هي تمهيديّة "ليأتيَ حكم الكنيسة بشأنها ناضجًا". ويُضيف: "لأنَّ كلَّ ما يتعلَّق بأصول تفسير الكتاب خاضعٌ في النهاية لحُكم الكنيسة، وهي بذلك تقوم بما عهدَ الله إليها من مهمَّةِ المحافظةِ على كلمة الله وتفسيرها" **(في الوحي الإلهيّ، رقَم ١٢).**

٢- الحداثة في مفهوم عقيدة الخلق وعقيدة الخطيئة الأصليّة

استنادًا إلى هذا المفهوم للوحي الإلهيّ، يقرأ اللاهوت المعاصر روايتَي الخلق اللتَين وردتا في سفر التكوين قراءة حديثة، مميّزًا فيهما الأسلوبَ الذي هو في كثير من المقاطع مشترَكٌ مع روايات مماثلة في أديان الحضارات المجاورة للحضارة التي فيها دُوِّن الكتاب المقدّس، وجوهر التعليم الذي يريد الكتاب المقدَّس أن يُبلغَنا إيّاه.

وقد توسَّعنا في كتابنا **"اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر"**[١] في نتائج هذه القراءة الحديثة، وبيّنّا أنّنا لا نستطيع أن نقرأ هاتَين الروايتَين كوصفٍ علميّ ولا كرواية تاريخيّة لعمل الخلق، إنّما هما تعليمٌ حول علاقة الكونِ بالله الذي هو وحده خالق السماء والأرض. بحيث يترك اللاهوتُ للعلم البحثَ في كيفيّة نشأة العالم[٢]، وتقديمَ نظريّاتٍ في هذا الموضوع. وكذلك بالنسبة إلى **خلق الإنسان، وخطيئة الإنسان**

---

[١]: رَ: كتابَنا، **اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر**، الجزء الأول، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية – لبنان، ١٩٨٤.

[٢]: **المرجع السابق**، ص ٧٥-٩٨.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الأولى: فقصّةُ آدم ليست قصّةً تاريخيَّةً تروي خطيئةَ أوّلِ إنسان خلقه الله، بل هي قصّةُ خطيئةِ كلِّ إنسان منذ الإنسان الأوَّل[٣]. كذلك بيّنَّا أنّ نظريَّة التطوّر لا تُناقضُ تعليم الكتاب المقدَّس[٤].

٣- الحداثة في تصوّر عمل الخلاص الذي قام به السيّد المسيح ابن الله

جوهر الإيمان المسيحي قوامُه الخلاصُ الذي حصلت عليه البشريّة من قِبَل الله في شخص يسوع المسيح، كما أوضحنا أعلاه. وتلك هي البشرى الأساسيّة التي ينقلها إلينا الكتاب المقدَّس. إلاّ أنَّ هذه البشرى تردُ إلينا في مفاهيمَ وتصوّرات وأنماط فكريّة لا تُفهَم إلاّ في الإطار الدينيّ والثقافيّ للمجتمع الذي نشأت فيه والعصر الذي دُوّنت فيه. فعلى سبيل المثال، لقبا "ابن الله" و"ابن البشر"، وصورُ "النزولِ من السماء" و"الصعودِ إلى السماء"، أو "الانحدارِ إلى الجحيم والصعودِ منها"، ونمطُ التفكيرِ المرتبطِ بالذبائح الدمويّة والتكفيرِ وإعتاقِ العبيد، كلُّ هذه تعابير لاهوتيّة ترد فيها العقيدة. وموضوع الإيمان هو العقيدة، أي الخلاص بالمسيح، وليس التعابير التي وردت فيها تلك العقيدة. فهذه التعابير تدعونا الحداثة إلى إعادة تفسيرها لإدراك رسالة الكتاب المقدَّس ومعنى الوحي إدراكًا أعمق. إنّ ما اختبره الأنبياء والرسل ورأوا فيه نعمة من الله وخلاصًا وفداءً ودوّنوه في الكتاب المقدَّس، تدعونا الحداثة إلى أن نقارنه مع ما نختبره اليوم لتبقى رسالة الكتاب المقدَّس حيَّةً على مدى التاريخ.

٤- الحداثة في مفهوم الخلاص خارج الكنيسة

لقد ساد الاعتقاد بين المسيحيّين على مدى أجيال أن **لا خلاص خارج الكنيسة**. ولكنّ اكتشافَ الأديان الأخرى وما فيها من خير وحقيقة جعل اللاهوتيّين يُعيدون النظر في هذه المقولة، إلى أن أعلن المجمع الفاتيكانيّ الثاني صراحةً: "إنَّ الذين، على غير ذنبٍ منهم، **يجهلون إنجيلَ المسيح وكنيسته**، ويطلبون مع ذلك الله بقلب صادق، ويجتهدون بنعمته أن يتمّموا في أعمالهم إرادَتَه كما يُمليها عليهم ضميرُهم، فهؤلاء يمكنهم أن ينالوا الخلاص الأبديّ.

---

[٣]: **المرجع السابق**، ص ١٠٥-١٢١.

[٤]: **المرجع السابق**، ص ٩٩-١٠١.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

وكذلك الذين، على غير ذنبٍ منهم، **لم يبلغوا بعد معرفة الله** معرفة صريحة، وإنّما يجتهدون، لا بمعزلٍ عن مؤازرة النعمة، أن يسلكوا مسلكًا مستقيمًا، فإنَّ العناية الإلهيّة لا تحبس عنهم المساعدات الضروريّة لخلاصهم. ذلك بأنَّ كلَّ ما فيهم من صلاح وحقّ هو في نظر الكنيسة تمهيدٌ للإنجيل، وموهبةٌ من ذاك الذي ينيرُ كلَّ إنسانٍ لكي تكون له الحياةُ أخيرًا" **(دستور عقائدي في الكنيسة، ١٦).**

وكذلك يقول المجمع في بيانه في **علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: "**والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئًا ممّا هو في هذه الديانات حقٌّ ومقدَّس؛ وتولي تقديرَها باحترام صادق هذه الطرق المسلوكةَ في العمل والحياة، وهذه القواعدَ والتعاليم التي، وإن اختلفتْ في أمورٍ كثيرةٍ عمّا تقولُ به هي وتعلّمه، تحمل غيرَ مرَّةٍ قبسًا من شعاع الحقيقة التي تنيرُ جميع الناس" (رقم ٢).

٥- الحداثة في مفهوم عصمة الكنيسة

الخلاف بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الأرثوذكسيّة حول عصمة البابا أسقف رومة لا يمكن أن يجدَ له اليوم حلاًّ إلاّ بدخول كلّ الكنائس المسيحيّة في الحداثة في مفهوم الحقيقة. هذا ما بيّنتهُ في الجزء الثالث من مجموعتي **اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر: "**لقد تأثّر الفكر اللاهوتيّ المسيحيّ منذ القرون الوسطى بنظرة أرسطو طاليس للحقيقة. فالحقيقة، في نظر هذا الفيلسوف، هي مطابقة الفكر للواقع.

ثمّ رأى الفلاسفة العقلانيّون، ابتداءً من القرن الثامن عشر، أنّه بإمكان العقل البشريّ تصوير الواقع بدقّة، بحيث يمكن القولُ إنّ الفكرة هي صورةٌ طبق الأصل للواقع. وفي تلك النظرة تبدو العصمةُ وكأنَّها القدرةُ، بمؤازرة الروح القدس، على إدراكِ الأمور الإلهيّة إدراكًا كاملاً، ووصفِها وصفًا دقيقًا كما هي في ذاتها، والتعبيرِ عنها دون خطأ. أمّا اليوم فيتّجه اللاهوتُ المعاصر إلى فهم **عصمة الكنيسة لا بالمعنى العقلانيّ بل بالمعنى الوجوديّ.**

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

أعني أنَّ المسيحي الذي يؤمن بما تُعلِّمه الكنيسة ويخضع لما تأمر به يستطيع أن يثق الثقة التامّة بأنَّه لن يضلّ بل يحيا في الحق، وأنَّ الكنيسة لن تقودَه إلى الضلال بل إلى الحياة في حقيقة الله وإلى إنشاء علاقة خلاصيَّة مع الله"[٥].

٦- عصر ما بعد الحداثة

في هذا الموضوع يمكن القول إنّنا دخلنا في عصر **"ما بعد الحداثة"** (postmoderne). فالإنسان الذي دخل الحداثة بتأكيد دور **العقل** ضدّ الإيمان وسيطرة **العلم** على الدين، يكتشف اليوم أنَّ العقل، الذي ظنَّ أنّه سيُدرك بواسطته كلَّ الأسرار، قد كشف بعض الأسرار ولكنّه وقف عاجزًا عن إدراك سرّ الكون؛ وأنَّ العلم، الذي اعتقد أنَّه سيحلُّ كلَّ مشكلات الناس، قد حلّ بعضًا من تلك المشكلات ولكنَّه سبّب أخرى، من مثل إفساد البيئة.

إنَّ عصر "ما بعد الحداثة" هو عصر "نقد الحداثة"، لا بمعنى رفضها، بل بمعنى قبول كلّ ما أكسبت الفكر البشريّ من أمور إيجابيّة وإظهار عجزها في كشف السرّ القَصِيّ الذي يكتنفُ حياةَ الإنسان ومصيرَ الكون. فعصر "ما بعد الحداثة" هو عصر عودة الدين، ولكن ليس الدين الذي كان قبل الحداثة، المتميِّز بالتعصّب والانغلاق على الذات ورفض الآخر، بل الدين المنفتح على كلّ الأديان وعلى كلّ الناس.

وهذا الدين، بعد أن أفاد من الحداثة، لابدَّ له، في حركةٍ ديالكتيكيّة، أن يعملَ على نقد الحداثة لئلاّ تُمسيَ حركةً كلّيانيَّة تُزيل من الإنسان باسم التطوّر أسمى ما فيه أعني علاقتَه بالله. عصرُ ما بعد الحداثة هو عصر **المسكونيّة** على صعيد التقاء **الكنائس المسيحيّة** بعضها مع بعض، وعلى صعيد التقاء **الأديان** بعضها مع بعض.

---

[٥]: راجع كتابَنا، **اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر**، الجزء الثاني، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية – لبنان، ١٩٨٥، ص ٢٦٠.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

خلاصة: الحداثة والشرق الأوسط

أين نحن في الشرق الأوسط من الحداثة وممّا بعد الحداثة؟ هذا السؤال ستحاول الإجابة عنه محاضرات هذا المؤتمر. ولكن يبدو لي لأوّل وهلة أنّ الشرق الأوسط في معظم بلدانه لم يدخل الحداثة إلاّ جزئيًّا، وإن كان من الضروريّ درسُ أوضاع كلّ بلد على حدة، فهناك بلدان تأثّرت بالحداثة أكثر من غيرها[٦]. وداخل كلّ بلد هناك أناسٌ دخلوا الحداثةَ أكثر من غيرهم.

هذا ما يظهر بوضوح لَمن يتفحّص الحوارات الفكريّة والدينيّة التي تجري في بلد مثل لبنان الذي يسمح دستوره ونظامه بحرّيّة الفكر وحرّيّة الدين. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الحداثة لا تقتصر في لبنان كما في سائر الدول العربيّة على أصحاب دين معيّن. إذ إنّنا نجد مسيحيّين تقليديّين ومسلمين تقليديّين، وبين هؤلاء يصعب الحوار الفكريّ والحوار الدينيّ، لأنّ تمسّكهم الحرفيّ والأعمى بالتقليد يقيّد فكرَهم ويحول دون انفتاحهم على فكر الآخر.

ولكنّنا نجد أيضًا مسيحيّين ومسلمين قد دخلوا الحداثة، وهؤلاء يمكنهم التحاور في ما بينهم، ويمكن أن ينتج من تحاورهم تقدّمٌ لهم وللفكر البشريّ والدينيّ في الشرق الأوسط بمجمله. دربُ الحداثةِ طويل ولكن من مكتسباتِ الحداثةِ عينِها السرعةُ في الإنجاز. فما كان يتطلَّبُ سنواتٍ يُحقَّق اليوم في أيّام. فهل يُتَاحُ لنا أن نرى في بداية الألف الثالث انتقالاً حقيقيًّا إلى الحداثة في بلدان الشرق الأوسط؟

(أُعطيت هذه المحاضرة في المؤتمر الأوّل لرابطة اللاهوتيّين الكاثوليك في لبنان وكان عنوانه "الشرق المسيحيّ والحداثة"، ١٤-١٥ شباط ١٩٩٧)[٧].

---

[٦]: راجع في هذا الموضوع:

Thom Sicking, s.j., “Complémentarité et opposition entre tradition et modernité en théologie au Proche-Orient”, *in foi chrétienne et inculturation au Proche Orient*, ISSR, Université Saint-Joseph, Beyrouth, 1992, pp. 84-107.

[٧]: ظهرت أعمال هذا المؤتمر في: رابطة اللاهوتيّين الكاثوليك في لبنان، **الشرق المسيحيّ والحداثة: أعمال المؤتمر الأوّل**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية – لبنان، ١٩٩٨.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com